

نظرية النظم المتعددة: إيفين-زوهار وتوري في ميزان دراسات الترجمة

Polysystem theory: Even- Zohar and Toury in the balance of translation studies

جمال بوتشاشة¹، عبد الرحمان رباح²

¹ جامعة الجزائر 2، معهد الترجمة ، boudjamel2000@yahoo.fr

² جامعة الجزائر 2، معهد الترجمة ، rebadjabderrahmane@gmail.com

تاريخ القبول: 2018/07/23

تاريخ الاستلام: 2018/06/01

ملخص

نظرية النظم المتعددة فرع من فروع دراسات الترجمة؛ وقد أسهمت إسهاما كبيرا في وضع الأسس التي يقوم عليها علم الترجمة المعاصر. وليس الهدف من هذا المقال هو تتبع مسار نظرية النظم المتعددة ولا التأريخ لها بقدر ما هو سير لأغوارها واستشفاف لكل ما أسهم به إيتامار إيفين- زوهار وجدعون توري في الترجمة بوجه عام و في إطار دراسات الترجمة الوصفية بوجه خاص. غايتنا هو وضع نظرية النظم المتعددة في ميزان دراسات الترجمة، والنظر إليها بعيون منطري الترجمة ودارسيها، وتقني مواطن القوّة والقصور فيها، والنظر في ما يقترحه هؤلاء الدارسون لتقوم اعوجاجها.

الكلمات المفاتيح: نظرية النظم المتعددة، إيتامار إيفين- زوهار، جدعون توري، دراسات الترجمة، دراسات الترجمة الوصفية، قوانين الترجمة، معايير الترجمة، كليات الترجمة

Abstract

Polysystem Theory is part of Translation Studies. It contributed greatly to the founding of the Modern Science of Translation. The aim of the present article is not to trace up its course. Rather, its objective is to find out Itamar Even-Zohar's and Gideon Toury's influence on translation in general and on Descriptive Translation Studies in particular. Our purpose is to weigh up the areas of strength and weakness to this theory, in the eyes of translation theoreticians and scholars, and consider the suggestions of the latter to its modification and refinement.

Keywords: Polysystem Theory, Itamar Even-Zohar, Gideon Toury, Translation Studies, Descriptive Translation Studies, translation laws, translation norms, translation universals

المؤلف المرسل: بوتشاشة جمال

تمهيد

تُعتبر نظرية النظم المتعددة polysystemtheory رافدا من روافد دراسات الترجمة. وهي، لاريب في ذلك، عنصر فاعل ومؤثر في علم الترجمة المعاصر، هذا الذي يسير بخطى واثقة من أجل احتلال مكانة له بين باقي العلوم. وليس الهدف من هذا المقال هو تتبع مسار نظرية النظم المتعددة ولا التأريخ لها بقدر ما هو سير لأغوارها واستشفاف لكل ما أسهمت به في دراسات الترجمة ولمواطن القصور فيها. ومع ذلك، لا نرى مندوحة في ذكر الأسس التي تقوم عليها هذه النظرية، ممثلةً في عَلمين من أعلامها وهما إيتامار إيفين-زوهار-ItamarEven Zohar و جدعون توري GideonTouy. ولا يمكن بحال إدراك ما تهدف إليه الملاحظات والانتقادات الموجهة إلى هذه النظرية دون الرجوع، على الأقل، إلى الأسس والمبادئ التي تقوم عليها. وهكذا يتمكن القارئ من تكوين نظرة شاملة عن هذه النظرية ومن فهم مقاصد هذا الناقد أو ذاك.

مدخل

إنَّ القارئ المتصفح للكتب و الموسوعات التي تؤرخ للترجمة و مقارباتها و نظرياتها يدرك أن نظرية النظم المتعددة polysystem theory (وقد تعددت تسمياتها بالعربية إذ هي نظرية النظام التعددي، ونظرية النسق المتعدد، وهي نظرية تعدد الأنساق، وهي نظرية تعدد النظم، وهي نظرية المنظومة المتعددة) قد وضع مفاهيمها الأولى المنظر الإسرائيلي إيتامار إيفين-زوهار-ItamarEven-Zohar في سبعينيات القرن الماضي وكانت جامعة تل أبيب الحاضن لها. وظهرت إرهابات هذه النظرية في الأبحاث التي قام بها إيفين-زوهار في سنوات 1970-1980 ونشرها لاحقا في كتاب Papers in Historical Poetics أي 'أوراق في تاريخ فن الشعر' حيث أشار إلى مصطلح Polysystem أي 'النظم المتعددة'. وهي 'تعني مجموعة غير متجانسة، ومتراصة، من المنظومات، التي تؤثر في بعضها بشكل ديناميكي ضمن منظومة شاملة (متعددة المعاني). وبذلك، فإن الأدب المترجم لا يعدو عن كونه واحدا من بين مستويات أخرى من المنظومة الأدبية التي تنضوي بدورها، في إطار منظومة فنية بشكل عام، لكن هذه المنظومة الفنية تشكل، بدورها، جزءا لا يتجزأ من المنظومة الدينية أو السياسية.' (غيدير، 2015: 143). وقد أطلع على أفكاره هذه المجموعة الهولندية/البلجيكية التي تُسمى 'Historic 1976' أي 'حلقة 1976 التاريخية' التي تُعنى بدراسات الترجمة وعلاقتها بالأدب المترجم بكل أشكاله، حيث عقدت مؤتمرها الأول، تحت رعاية الرابطة الدولية للأدب المقارن، في مدينة لوفين Leuven بلجيكا ومؤتمرها الثاني في عقر دار إيفين-زوهار في تل أبيب سنة 1978 ومؤتمرها الثالث في مدينة

انتويرب Antwerp بولندا سنة 1980. وكان من أهم ما خرجت به هذه الدراسات والمؤتمرات أن الأعمال الأدبية لا بد أن تدرس ضمن النظام الأدبي العام المتمثل في الإطار الاجتماعي والثقافي والتاريخي للغة الهدف، ومنه اعتبار "الترجمة منظومة فرعية ترتبط بالإطار العام لثقافة المجتمع المستقبل، وليست منظومة مستقلة لها منطقتها، إنما تخضع لتفاعلات المنظومات الأخرى القائمة." (غيدير، 2015: 145). واعتمد إيفين-زوهار في دراسته للأدب المترجم على مبادئ المدرسة الشكلية الروسية التي كانت سائدة في عشرينيات القرن الماضي، وتبني مجموعة من مفاهيمها مثل المعيار الأدبي Literary Norm التعجيب defamiliarization والصبغة الأدبية literariness؛ وفصل الصنعة الأدبية عن باقي المجالات الأخرى كعلم النفس وغيره من المجالات. وأتى من بعده المنظر الإسرائيلي جدعون توري Gideon Toury الذي كان باحثا في جامعة تل أبيب حيث تبني هو بدوره أعمال إيفين-زوهار وعمل على تطوير النظرية وتعزيز مكانتها ضمن دراسات الترجمة ودعا، بناءً على ذلك، إلى إنشاء دراسات الترجمة الوصفية التي من شأنها أن تكون بديلا لدراسات الترجمة الشائعة حينئذ وبخاصة منها اللسانية، و أصدر كتابين ضمّتهما كلٌّ أفكاره وتصوّراته وهما *In Search of a Theory of Translation* أي 'بحثًا عن نظرية الترجمة' سنة 1980 و *Descriptive Translation Studies-And Beyond* أي 'دراسات الترجمة الوصفية - وما بعدها' سنة 1995. وفي دراساته هذه طوّر توري منهجية في تحليل الترجمة الأدبية وتقييمها تقوم على المقارنة مع الأصل مستندا في ذلك على دراساته التحليلية التقييمية التي أجراها على عدد من الروايات الأوروبية المترجمة إلى العبرية مع إلزامية اللجوء إلى عنصر ثالث في المقارنة يسمّيه tertium comparationis أي الموازن الثالث أو القسيم الثالث يمثّل الترجمة الوافية/الكافية adequate translation التي يُقاس من خلالها تحولات الترجمة. وبهذا أضحت أبواب التنافس مفتوحة على مصراعها أمام الأدب المترجم للنظر في أيّها يحتل مرتبة الصدارة في النظم المتعدّدة إذ "تقوم الفكرة الرئيسية لهذه المنظومة المتعدّدة على التنافس بين مختلف مستويات المنظومة أو طبقاتها. لهذا يوجد ثمة توتر دائم بين مركز المنظومة ومحيطها، أي بين الأجناس الأدبية السائدة في فترة معيّنة، وتلك التي تسعى إلى هذه السيادة. لأن هذه المنظومة الأدبية المتعدّدة تضم الأعمال المهمة، كما تضم الأنماط النصية الأقل قبولا، مثل حكايات الأطفال أو الروايات البوليسية المترجمة." (غيدير، 2015: 143-144). وهذا الذي من شأنه أن يحدّد استراتيجية الترجمة. وإن هذه المنهجية في عرف توري هي التي تمكّن من تحديد 'معايير الترجمة' translation norms ومن استنباط 'قوانين الترجمة' translation laws أيضا. وقد وضع توري ثلاثة أنماط من المعايير،

تندرج تحتها معايير ثانوية، هي المعايير الأولية initial norms (هي خيارات المترجم) و المعايير التمهيديّة preliminary norms (ما قبل الترجمة) و المعايير العملية operational norms (في أثناء عملية الترجمة). وعلى أساس هذه المعايير أمكنه صياغة قانوني سلوك الترجمة وهما 'قانون التوحيد المتنامي' law of growing standardization و 'قانون التداخل' law of interference. وهو يعني بقانون التوحيد المتنامي جنوح المترجم الأدبيّ إلى "تغيير الأنساق القائمة في النص المصدر أثناء الترجمة، وانتقاء خيارات لغوية أكثر شيوعاً في اللغة المستهدفة، وقد يؤدي ذلك إلى الميل إلى 'التوحيد' العام في لغة النص المترجم وغياب التنوع الأسلوبي فيه، أو على الأقل تطويعه للغة المستهدفة بأبنيتهما وتعبيراتها الخاصة، [ويعني بقانون التداخل] المحاكاة الدقيقة، عمداً أو دون عمد، للأنساق اللفظية والتركيبيّة للغة المصدر، في النصوص المترجمة." (عناني، 2003: 233 / المعقوفتان من وضعنا).

نظرية النُظُم المتعددة وما لها

يُعدّ أصحاب نظرية النُظُم المتعددة وعلى رأسهم إيفين - زوهار أول من تصور الترجمات على أنها مجموعة أو نظام، كما أنهم اعتمدوا على الوصف description في دراستهم عوض التوجيه أو التقنين prescription، ذلك أن هذه النظرية "تأخذ في اعتبارها عوامل ثقافية اجتماعية تتخطى الترجمة الأدبية، وتجعلها صالحة للتطبيق على أي ترجمة." (عناني، 2003: 236). ومن أهم ما سعت إليه نظرية النُظُم المتعددة كذلك وضع نظرية عامة للترجمة، كامتداد لاعتبارهم الترجمة علماً. وقد اهتموا بالسياق التاريخي والاجتماعي، كما أنهم ركزوا على الدور الذي تقوم به الترجمات وعلى كفاءة المترجمين؛ فعمّ تأثيرهم العديد من البلدان وخاصة بلجيكا وهولندا بعد النجاح الكبير في إسرائيل.

والعنصر البارز في نظرية النُظُم المتعددة هو فكرة اعتبار النص المترجم جزءاً من نظام معين يتفاعل مع أنظمة أخرى ليشكل كلاً متكاملًا، إذ هناك أسباب ومزايا تجعل هذه النظرية تمثل تطوراً مهماً في دراسات الترجمة و "هي أن الأدب ذاته يُدرس إلى جانب القوى الاجتماعية والتاريخية والثقافية؛ وأن إيفين - زوهار يتعد عن الدراسة المنفردة ويتجه نحو دراسة الترجمة ضمن النُظُم الثقافية والأدبية التي تعمل فيها الترجمة." (مندي، 2010: 155).

وقد تمكن أصحاب نظرية النُظْم المتعددة وعلى رأسهم إيفين - زوهار وتوري من التخلص من ضيق الحدود التي تفرضها النظرة بالحسارة 'loss' أو 'الخيانة' betrayal أو التكافؤ equivalence أو الأمانة faithfulness في الترجمات، والابتعاد عن قياس 'الخطأ' و 'الصواب'. "لقد كانت النظرية متعدّدة النُظْم تطورا جذريا، ذلك أنها أبعدت الانتباه عن المناقشات الجافة حول الأمانة والتكافؤ، إلى دراسة وظيفة النص المترجم في سياقه الجديد. والأهم، أن هذا فتح المقام لأبحاث أخرى في تاريخ الترجمة، وقاد أيضا إلى إعادة تقويم أهمية الترجمة بوصفها قوة للتغيير والابتكار في التاريخ الأدبي." (باسنت، 2012: 19-20). وفي هذا الصدد يشير محمد عناني، متحدثاً عن إيفين-زوهار ونظريته، قائلا: "وأعتقد أن نظرية 'تعدّد النُظْم' كانت من وراء كثير من الاتجاهات الحديثة في التسعينيات التي حررت دراسة الترجمة من التركيز الممل على الحوار القديم بين ترجمة الألفاظ وترجمة المعاني، وكان لها تأثيرها الكبير في معظم من كتبوا بعده، ومنهم جدعون توري" (2003: 226). ويذهب إدوينغينتسler Edwin Gentzler أبعد من هذا حيث يعتبر نظرية النُظْم المتعددة من إحدى النظريات التي "تعكس بحق مظاهر التجديد الحاسمة بالنسبة إلى تطور هذا الحقل الفتي [وأن] إيفين- زوهار لم يعزز فهمنا لنظرية الترجمة فحسب، ولكنه كان أيضا المنظر الوحيد الذي أقر بأهمية الترجمة في إطار دراسة أي أدب مفرد." (غينتسler، 2007: 32-33 / المعقوفتان من وضعنا).

وتركز دونيزميركل (Merkle, 2008:175) على ما حققته نظرية النُظْم المتعددة من حيث الجانب الاجتماعي، وتأثر توري تأثرا كبيرا بأفكار بيير بورديو Pierre Bourdieu حيث تشير إلى إسهام جدعون توري في توجيه اهتمام الدارسين في الوقت الحالي إلى السيكولوجيا الاجتماعية للترجمة وإلى سلوك المترجم من خلال التأسيس لتوجه اجتماعي في الدراسات الترجمة. وهي ترى أيضا (Merkle, 2008:176) أن عمل توري على دراسات الترجمة الوصفية descriptive translation studies إسهام لا يستهان به في دراسات الترجمة ككل، وتعتبر دراسات الترجمة الوصفية نموذجاً منسجماً من الناحية المنطقية وأن تأثير توري تجاوز منهجية دراسات الترجمة الوصفية، ليشارك بشكل بناء في البحث في المعالجة النصية وفي سلوك الترجمة، وقد كان هذا التأثير محسوسا طوال الثمانينيات ولا يزال إلى يومنا. والحق أنّ آراء توري حول دراسات الترجمة الوصفية كانت الحل لمشاكل نظرية ترجمة سادت في السبعينيات، وأتت بالجديد على الرغم مما قيل فيها. وقد "ملأت نظرية تعدّد النُظْم الهوة التي فُتحت في سبعينيات القرن العشرين بين علم اللغة والدراسات الأدبية، وقدمت الأساس الذي يمكن أن تبني عليه دراسات

ترجمة جديدة بين النُظُم." (باستنت، 2012: 20). والواقع أنّ دراسات الترجمة الوصفية جمعت بين عدة مجالات، ولم تحمل ما شهدت تلك المجالات من تطور، كما أنّها تجاوزت النظرة الثقافية المحضّة في دراسة الترجمة، لتضيف إليها الاهتمام بالترجم وسلكه الترجمي. وفي هذا تشير ميركل (Merkle, 2008:175) إلى أن توري، وبتريسيخه دراسات الترجمة الوصفية ضمن إطار علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي، قد أسّس لتوجّه اجتماعي في الدراسات الترجّمية لم يهمل بحال من الأحوال العوامل المعرفية والنفسية؛ وأن توري دعا الباحثين إلى إعادة النظر في أفكاره، في ضوء التطورات التي شهدتها البحث في علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي. ويفضله أصبح الباحثون يميلون إلى خيار المقاربة الاجتماعية المعرفية للعملية الثقافية ومنتجها sociocognitive approach to cultural process and outcome، أي إن الباحثين أصبحوا، بعبارة أخرى، يهتمون أكثر بدراسة المنتجين لهذه المنتوجات الثقافية، وبكيفية فعلهم ذلك، والسبب الذي دفعهم إليه.

وعلاوة على ما تقدم، يمكننا إنجاز أهمية أعمال إيفين-زوهار وتوري في نقطة واحدة وهي أن "ميزة نظرية النسق المتعدد أنّها تراجع تنمية نفسها بنفسها في ما تسوقه من حجاج، وتحقق التكامل بين دراسة الأدب ودراسة القوة الاجتماعية والاقتصادية في التاريخ. وقد استخدم إيفين-زوهار مصطلح 'متعدّد' Poly تحديداً، ليحسب حساب مثل هذا التدقيق والتعقيد دون أن يضطر إلى التقيّد بعدد محدود من العلاقات والروابط المتقاطعة." (غينيتسلر، 2007: 287).

نظرية النُظُم المتعددة وما عليها

لقد قدّم إيفين-زوهار لدراسات الترجمة ما قدّم، وأوّلت نظرية النُظُم المتعددة أهميةً لدور الترجمة في النظام الأدبي، وهو الأمر الذي أهملته نظريات الأدب، ومع ذلك فإن إيفين - زوهار "نفسه يعترف بأن التراتبية التي وصفت، والطريقة التي اختيرت بها الترجمات، والطريقة التي أدت بها وظيفتها ضمن النسق الأدبي (النظام)، كل ذلك جاء بصورة مفرطة في التبسيط، وأن النظرية احتاجت إلى المراجعة." (غينيتسلر، 2007: 288). فمبدأ التراتبية (أو الهرمية أو الهيراركية) ومصطلحاته التي من قبيل الأعلى/الأدنى، والأكبر/الأصغر، وذو النفوذ/غير ذي النفوذ، والأساسي/الثانوي يُعدّ مبدأً مثيراً للجدل في نظرية النُظُم المتعددة خاصة وأنه لا يأخذ بعين الاعتبار عنصر الزمن الذي تتغير بممروره الأمور. وبهذا يوجّه النقد إلى أصحاب هذه النظرية بسبب "الافراط في الاعتماد على النموذج الشكلي ذي الأصول التاريخية الذي كان سائداً في عشرينيات القرن المنصرم و الذي قد لا يكون ملائماً

للنصوص المترجمة في السبعينات، الأمر الذي يشير إليه إيفين - زوهار نفسه في نموذجه حينما يتحدث عن اتجاهات النشوء والارتقاء. " (مندي، 2010: 156). ثم إن التقسيم الذي اعتمده إيفين - زوهار والذي يحتل فيه أدب الأطفال موقعا ثانويا - في وقت تتغير فيه مواقع أنساق أخرى ضمن النظام الأدبي الكلي مثل الأدب المترجم الذي قد يحتل موقعا ثانويا أو مركزيا، مع أن الأصل فيه احتلال مركز ثانوي- يعتبر تقسيما "يحتفظ ببقايا أيديولوجية، تتمثل في نسق لا تاريخي يحكم الأدب، هذا على الرغم من المزاعم الدفاعية بنقيض ذلك. وإذا كان الأدب المترجم - في ما يبدو- يمارس وظيفته بما هو 'أساسي' و'ثانوي' معا - ألا ينبغي أن يصدق ذلك على أدب الأطفال، والروايات البوليسية والقصص الشعبي؟ إن محتوى الإطار النظري لطراز إيفين-زوهار ينزل دائما بالقصص الشعبي ليحلله منزلة ثانوية، لأنه لا يطور الشكل أو الجنس الأدبي... إلا أن ثمة دليلا كافيا يبين يثبت وجود أنساق أدبية تحظى فيها الحكايات الشفاهية بدرجة عالية من القيمة. " (غينتسler، 2007: 292). ولعل الشعوب المنتشرة في كامل بقاع الأرض مثل الهند والبرازيل وبلدان أفريقية كثيرة والتي لا تعتمد على كتابة أدبها - أي أن أدبها بقي شفاهيا- خير دليل على الخلل النظري فيما ذهب إليه إيفين - زوهار من تعميم.

إنّ اعتماد توري على بعض المفاهيم النظرية مثل تطور الأدب واختلاف الأنساق الأدبية بين اللغات جعله يركز على الترجمات بدل النصوص الأصلية؛ فهو مع ما يعتمد في توجهه النظري بأن هناك شكلا بنويا واحدا لنسقين مختلفين يخالف مفهوم تطور الأدب، ولعل هذا يظهر أكثر في "اعتبار النصوص المترجمة حقائق اختبارية Empirical facts وتعريفه للمعايير الثقافية بأنها قواعد سلوكية غير متعارضة تؤثر على توليد النصوص الفعلية، وكذلك اختزال النزعات المركبة ضمن العصور التاريخية في قوانين سلوكية موحدة... وأن 'معايير' الخمسة أو الستة تنطبق على جميع النصوص التي تضمنتها الدراسة، وأن تحليله يوثق المشاكلة وليس الاستثناءات." (غينتسler، 2008: 310). ومع ذلك يقرّ ماثيو غيدير أن نظرية النُظْم المتعددة أولت اهتماما للدور الذي يلعبه الأدب ضمن منظومة أدبية معيّنة وبأثر هذا الاتجاه في دراسات الترجمة "لكنّ تحليلها لعلاقات القوة بين الآداب الوطنية والآداب الأجنبية تكسني لونا إيديولوجيا يمكن أن يشوّه استقبالات الترجمة بشكل عام." (غيدير، 2015: 146).

إنّ تأثر إيفين-زوهار بالشكلايين الروس يبرز بشكل جليّ في تبنيه لمفهومين أساسيين من مفاهيمهم، وهما مفهوم الصبغة الأدبية Literariness الذي هو منظومة الخصائص والسمات التي يصير بها العمل أدبا، ومفهوم التعجيب defamiliarization الذي هو صياغة الأدب بشكل يخالف المألوف ويشير العجب و الدهشة

لدى المتلقي. ففي مفهوم الأدبية" أدى الإلحاح عليه إلى القول بخصوصية الأدب وتمايزه، وحاجته إلى دراسته بمنهج يتسم بالخصوصية والتميز، ونفي تعلق دراسة النص الأدبي بالسياسة والبيئة وعلم النفس وغير ذلك من المجالات والمرجعيات التي ارتبطت به عند كثير من الدارسين. وقد كانت هذه النزعة موضع انتقاد من بعض رواد الاتجاه الشكلائي، بل إن جاكوبسن أعلن أنه لا هو ولا أي أحد من رواد الشكلائية يرون الفن مجالا مغلقا، وأن تشديدهم لم يكن على الفصل بين الأدب وتلك المجالات، ولكن همهم كان التأكيد على استقلال الوظيفة الجمالية". (غينتسلر، 2007: 474). فهذا المفهوم الذي يعتمد إيفين-زوهار "أساسا للطراز النظري المعقد للأنساق الثقافية... يبدو غير ملائم له" (غينتسلر، 2007: 291) لأن إيفين - زوهار نفسه يرى بأن الأدب المترجم باعتباره نسقا/نظاما يتأثر ويؤثر ضمن النظام الأدبي الكلي بحسب الثقافة المترجم إليها والوضع التاريخي وغير ذلك من العوامل. أما مفهوم التعجيب الذي استقى منه إيفين - زوهار مفهوم الحقائق الأدبية *literary facts* "ربما يكون مناقضا لأطروحته هو نفسه القائلة بأن النصوص الأدبية تتصف بالتبعية للثقافة *culturally dependent*". (غينتسلر، 2007: 292). فكيف لنصوص أدبية، مهما كانت، أن تكون تابعة لأي ثقافة أن تتصف بالتعجيب؟ ولعل هذا يعزى إلى تأثر إيفين - زوهار بمفهوم الصبغة الأدبية، المنفصلة عن باقي العوامل الناجمة عن المجالات الأخرى كالفلسفة وعلم النفس والتاريخ على وجه الخصوص، مع أن إيفين - زوهار يعتبر التاريخ عنصرا مهما في عمل الأنساق.

ويُعاب على إيفين - زوهار إهماله الاحالة *reference* والظروف الواقعية التي تم إنتاج النصوص فيها، إذ هو لا يولي أهمية لما يحيل إليه الدال *signifier* من مدلول *signified*، بل هو يركز على الدال وعلى "كيفية تفاعله من حيث الشكل مع الأنساق الأدبية/الثقافية للدلالة... فكيف يترجم المرء العلامات دون مزيد من الإخفاء أو التشويه للشيء الذي تحيل إليه العلامة؟ وكيف يتأتى في نسق مؤلف من علامات مختلفة، ترتبط بتداعيات ثقافية مختلفة، أن يهون المرء من شأن العناصر المفقودة في عملية الإحالة؟" (غينتسلر، 2007: 293). وفي هذا يشير نيومارك (19 : 1988) (Newmark) إلى أهمية المستوى الإحالي *referential level* في الترجمة، أي مستوى الأشياء والأحداث، واقعية كانت أو مُتخيَّلة، معتبرا إياه عاملا هاما في الفهم ثمّ في عملية إعادة الإنتاج.

ويخالف جدعون توري أحد أهم الأسس التي بنيت عليها نظرية النُظُم المتعددة في مقاله *The Nature and Role of Norms in Literary Translation* أي 'طبيعة المعايير ودورها في الترجمة الأدبية' ألا وهو العمل على نصوص أصيلة فيسياقات معينة مختلفة للكشف عن المعايير المتحكمة في الترجمة؛ فيعمل بعكس هذا المبدأ

"يستحضر نصا ثالثا مثاليا غير متغير، وذلكم هو 'الترجمة الوافية' Adequatetranslation" (غينتسلر، 2008: 307) في إشارة إلى ما يسميه TertiumComparationis أي القسم الثالث أو الموازن الثالث، وهو يمثل العامل الثابت في المقارنة، على الرغم من قوله من أنه لا وجود لترجمة وافية/كافية بسبب السياق الجديد الذي ستصبح الترجمة جزءا منه، ولا لترجمة مقبولة، فالترجمة وسط بين الكفاية Adequacy والمقبولية Acceptability. ففي كتابه الأول الذي أصدره سنة 1980، كان توري شديد الإصرار على استخدام عامل ثابت وسطي افتراضي بغية مقارنة النص الأصلي بالنص المترجم وقياس تحولات الترجمة، إلا أنه في كتابه الذي أصدره في 1995 تخلّى عن ذلك واقتصر على مقارنات 'مخصصة' للدراسة، وفقا لما تمليه الظروف، بحيث يتعد المنهج عن التقنين ويتسم بالمرونة، إذ هو يعترف باستحالة ترجمة 'وافية' تماما من الناحية العملية. (مندي، 2010: 158؛ عناني، 2003: 228).

والظاهر أن إيفين - زوهار كذلك وقع في ما أراد تجنّبه، أي أنه ضيق بتطبيقاته العملية تصورات النظرية، من حيث أراد أن تشمل نظريته العديد من الجوانب التي أهملتها نظريات أخرى، ووقع في المشكلة نفسها، ألا وهي جعله النسق/النظام الأدبي مستقلا ذاتيا استقلالا كبيرا إلى حد ما، وأنه "ينظّم نفسه بنفسه Self-Regulating System، وأن الطبقيّة Stratification تنشأ عن 'تقاطع العلاقات ضمن النسق'. وهكذا ينزع إيفين-زوهار إلى قراءة النصوص المترابكة في الحياة الثقافية للمجتمع بالفروض الشكلائية المسبقة نفسها التي حملها الشكلايون الروس على النصوص الفردية." (غينتسلر، 2007: 293). هذا يعني أن إيفين - زوهار قال إن مفهوم النسق/النظام ليس نصوصا فردية تُؤخذ في معزل عن العوامل الأخرى المؤثرة ثم فعل عكس ذلك عندما جعل النسق الأدبي مستقلا ذاتيا من حيث التنظيم والطبقيّة ضمنه. وقد كتب هيرمانز Hermans مقالا سنة 1995 يراجع فيه كتاب توري الأول الذي أصدره سنة 1980 يعيب فيه عليه تجاهله لعناصر لها تأثير كبير في الترجمة كالعوامل الأيديولوجية والسياسية ومكانة النص المصدر ضمن ثقافته في مقارنة الأعمال الأدبية المكتوبة بنفس اللغة، واحتمال دعم أصحاب ثقافة النص المصدر ترجمته لأجل الدعاية أو لرفع مكانته الأدبية، وما ينجم عن ذلك من تأثير في نظام الثقافة المصدر. (عناني، 2003: 235؛ مندي، 2010: 164). ويلوم بعض المنظرين ودارسي الترجمة (Hermans, 2008 : 177 ; Simeoni, 2008 : 178) على إيفين - زوهار وتوري انشغالهما بالنص المترجم، وتركيز اهتمامهما عليه، وإغفالهما لما يحيط بالترجمة ككل، مشيرين إلى نقطة مهمة وهي أن

الدراسات التي تقوم على دراسات الترجمة الوصفية تعتمد بشكل كبير على النص الهدف، بغية البحث عن اتجاهات المسلك الخاص في منتج الترجمة، وتحمل المترجم والعمليات الفكرية التي يقوم بها وعملية الترجمة ككل. إنَّ قانوني الترجمة اللذين وضعهما توري، أي 'قانون التوحيد المتنامي' و 'قانون التداخل'، كانا محلّ ملاحظات وانتقادات كثيرة. ففي 'قانون التوحيد المتنامي' يلمّح توري إلى تجاهل العلاقات النصية في النص المصدر تجاهلا تاماً أثناء عملية الترجمة. وهذه الصيغة غير معبرة عن واقع ممارسة الترجمة لأن "بعض المترجمين ربما 'يعدّلون' to 'modify' بغير ضرورة، ولكنّ معظمهم 'لا يتجاهلون تجاهلا تاماً' مظاهر النص الأصلي [إذ] ثمة تعبيرات معينة أحيانا تكون غير متاحة، وهذا كل ما في الأمر، ولذلك يبذلون غاية ما يستطيعون من الجهد." (غينتسلر، 2007: 336). وعن وضوح معالم قانوني الترجمة اللذين صاغهما توري، يرى سيميوني (Simeoni, 2008) (314) أنّهما ليسا بذلك الوضح إذ يتعذر فهمهما ومتابعتهما. فالقانون الأول يجعل المرء يفترض أن التنوع اللساني الداخلي أقل في الترجمات منه في غيرها بسبب المبالغة في الترجمة over-translation، أمّا القانون الثاني فيفترض بأن الترجمات تحمل بنى النصوص الأصلية، مما يجعل لغة الترجمات تبدو غريبة. وعليه، يبدو أن توري اختار أسوأ ما تُنفّد به الترجمات ليحعل منه خصلتين ملازمتين لكل الترجمات. وفضلا عن تعدّر فهمهما ومتابعتهما، فإن قانوني توري يبدوان متناقضين. ففي نظر توري، الترجمات كلها مثل بعضها بعضا، تستعمل لغة متملقة flattery language، والقانون الثاني يقول بأن التداخل interference موجود في كل الترجمات. فكيف يمكن الجمع بين هذا وذاك؟ أي كون الترجمات كلها مثل بعضها بعضا وأن كلها تشبه النصوص المختلفة التي ترجمت عنها؟

إن الحديث عن 'قانوني الترجمة' يجرّنا إلى الحديث عن 'معايير الترجمة'، هذه التي يعتبرها سيميوني (Simeoni, 2008: 313) مفهوما مضللاً إلى حد كبير، إذ كثيرون يعتقدون أنّها سهلة الفهم والتطبيق نوعا ما، وهي ليست كذلك. والناظر في اعتماد توري طراز تشومسكي Chomsky في التفريق بين الكفاءة competence والأداء performance أي إن لكل متكلم بلغة ما كفاءة وهي المخزون اللغوي، وأداءً وهو استعمال ذلك المخزون - واللذين أضاف إليهما توري مفهوم 'المعايير' التي هي تكرار الأداء - يمكنه أن يفهم أن ذلك يدعم منهجه في الاختلاف بين المعايير المعتمدة في نسق/نظام أدبي دون آخر؛ لكن ما إن يتم أخذ طبيعة الترجمة كمجال يجمع بين لغتين على الأقل يختلف في ذلك الاختلاف ليصبح تماثلا كما تمّ تبينه في الكلام عن القسم الثالث أو الموازن الثالث الذي 'يملك كل البشر من ذوي اللسانين القدرة على الحدس به'. ولعل هذا من

الأسباب المهمة التي دفعت أصحاب نظرية النُظْم المتعددة إلى وضع القوانين laws والكليات universals؛ وهو الأمر الذي يرفضه العديد من منظري الترجمة. ولقد بيّن التاريخ أن أمريكا مثلاً، في حقبة الخمسينات، بعد أن خرجت منتصرة في الحرب العالمية الثانية، وأصبحت تعيش رخاء في شتى المجالات، وتّسم بالتنوع الأدبي، كان يتم فيها "استيراد نتاج كُتّاب من أمريكا اللاتينية ومن بينهم غارسيا لوركا Garcia Lorca... ولقد قام بالترجمة كُتّاب ومترجمون من ذوي المقام الرفيع من أمثال جيمس رايت James Wright... وجميعهم أعرضوا بوعي عن المسار الأساسي للأعراف الشعرية والأدبية السائدة في هذه الحقبة. وإن الترجمة خلال هذه الحقبة لم تقم بدور العامل المحافظ الذي يعكس المعايير الثقافية والأدبية للمرحلة، ولكنها كانت عاملاً تقديمياً يتحدى تلك المعايير، ويحاول تغييرها، وذلك باستيراد أشكال وأفكار جديدة... وإن هذه المادة تناقض ما توصل إليه توري من نتائج." (غينتسلر، 2007: 340-341).

ومن أهم ما عايناه لورنسفينوتي Lawrence Venuti على نظرية النُظْم المتعددة، وعلى توري بوجه خاص، ما نادى به من ابتغاء العلمية في دراسات الترجمة. ويحاول فينوتي، من جهته، الجمع بين حقيقتين تتميز بهما الترجمة وأن يوازن بينهما، وهاتان الحقيقتان هما العلمية من جهة والقيم من جهة أخرى. ويمكن اعتبار نظرة فينوتي هذه نظرة 'تكاملية' إذ "هو يرى أن الترجمة علم من العلوم الإنسانية التي تتكامل فيها المناهج 'المحمّلة بالقيم'، بمعنى أن كل منهج يمثل اتجاهها فكرياً يقوم على نسق ما من 'أنساق القيم'، وأن هذه المناهج المتكاملة لا يمكن تحريرها من 'القيم' التي تدفعها في شتى مساراتها؛ ولذلك يقول إن الترجمة لا تقبل منهج العلوم الطبيعية 'البريئة من القيم' value-free، ويرفض لذلك المنهج الوصفي 'العلمي' الذي يتحدث عنه توري وما يرمي إليه من وضع معايير وقوانين للترجمة 'بريئة من القيم'." (عناني، 2003: 255-256). ويبيّن فينوتي أن من بين أسباب عدم إمكانية تطبيق المنهج الوصفي على الترجمة، مثلما أراده توري، هو التعقيد والتشعب الذي يطبع شبكة المؤثرين في الترجمة من حكومات وناشرين ومحررين ونقاد، فضلاً عن المترجمين أنفسهم، إذ إن لكل هؤلاء تأثيراً ما في الترجمة. ويعتقد لوفيفر Lefevre (غينتسلر، 2007: 327-328) أن الموضوعية التي يستلزمها الوصف في نظرية النُظْم المتعددة - وهي الموضوعية الخالصة - لا وجود لها في مجال الترجمة لأن المترجم، مهما كان، يبقى دائماً مكبّلاً بأيدولوجيته. وذهب إلى أبعد من ذلك حين صرّح بأن ادعاء الموضوعية الخالصة افتقار للأمانة من حيث أن الموضوعية يحددها المتحكمون patrons، والأهم من ذلك أنه سلّم - لأول مرة في المنظور الخاص بدراسات الترجمة - بأن دراسة الأنساق الأدبية لا يمكن أن تحصر بتطورها الأوربي- الأمريكي. ولعل الأدب العربي هو من

أهم العوامل المساهمة في تطور الأدب بشكل عام عبر التاريخ - و كذلك آداب أمم أخرى احتك بها الأوروبيون والأمريكيون - خاصة في الوقت الذي عرفت فيه أوروبا انحطاطا كبيرا في جميع المجالات خلال القرون الوسطى، عصر الظلمات. وهذه الجزئية أهملها توري، ومن قبله إيفين - زوهار اهمالا كبيرا.

نظرية النظم المتعددة: رأب الصدع

إن لكل نظرية من نظريات الترجمة أسسا تقوم عليها، منها ما لاقى استحسانا ومنها ما لاقى استهجانا. ولنظرية النظم المتعددة، كباقي نظريات الترجمة ومقارباتها، ما لها وما عليها. وقد سعى كثير من الباحثين و دارسي الترجمة إلى تطويرها وإضفاء بعض التحسينات عليها. أول هذه المساعي أن كثيرا منهم يلح على وجوب تحرر نظرية النظم المتعددة من قيود بعض المفاهيم الشكلانية الروسية، ومن التأثير المبالغ فيه بهذه الأخيرة على وجه العموم، حتى إن بعض الباحثين ممن ينتسبون إلى نظرية النظم المتعددة "ومن بينهم الراحل اندريه لوفيفر [عزفوا] عن استخدام المصطلحات التي جاءت بها نظرية النظام التعددي ليركزوا على الدور الذي تلعبه الايديولوجية والرعاية والتأثير في نظام الأدب المترجم". (مندي، 2010: 170/ المعقوفتان من وضعنا). ويشير بعضهم الآخر إلى أن توري، في تحليله الترجمات الأدبية وتقييمها من خلال مقارنتها بالأصل، "يوثق المشاكلة وليس الاستثناءات، ولعل الأمر الذي يثير مزيدا من الاهتمام، ويكون أكثر كشافا عن طبيعة الترجمة، هو إيراد قائمة بكل الاستثناءات التي خرجت عن القواعد." (غينتسلر، 2008: 310). ويهيب بعض منظري الترجمة (Hermans, 2008 : 178 ; Simeoni, 2008 : 177 بإيفين - زوهار وتوري أن يركزا الاهتمام أكثر على ما يحيط بالترجمة، والمترجم، والعمليات الفكرية التي يقوم بها، وعملية الترجمة ككل، بدل التركيز على النص المترجم فقط. ويقترح بعض المنظرين تحسينات معينة على قوانين الترجمة ومعاييرها تتمثل في مجموعة من المفاهيم، مثل تلك التي اقترحها لوفيفر كمفهوم القطبية **polarity** والوقئية **periodicity** والرعاية (المتحكمة) **patronage** التي هي في عرّفه "نوع من القوة التي يمكن أن تكون لها الفاعلية المؤثرة على الأعمال الأدبية بالتشجيع، أو تيسير سبل الذبوع، بل كذلك بالشيط، أو إخضاعها للرقابة، أو تشويه سمعتها. وقد ذهب إلى أن الرعاة المتحكمين **patrons** قد يكونون أفرادا مثل... لويس الرابع عشر، أو جماعات مثل هيئة دينية ما، أو حزب سياسي ما، أو مؤسسات مثل مؤسسات النشر، أو نظم التعليم." (غينتسلر، 2007: 327). ويرتشتسترمان **Chesterman** صاحب كتاب **Memes of Translation** أي 'العناصر الصغرى في الترجمة'، والذي هو من أساطين دراسات الترجمة الوصفية، أن حل القصور الظاهر في 'معايير' نظرية النظم المتعددة

يكمن في اقتراح مجموعة أخرى من المعايير تكون تقنية وأشمل من تلك التي اقترحها توري، وهي معايير المنتج (الناتج) أو معايير التوقع (التوقعات) product or expectancy norms، وهي تتعلق بتوقعات القراء إزاء ترجمة معيّنة، والمعايير المهنية professional norms، وهي تنظم عملية الترجمة ذاتها، ويندرج تحتها معيار أخلاقي هو معيار المساءلة (المسؤولية) accountability، ومعيار اجتماعي هو معيار التوصيل (التواصل) communication، ومعيار لغوي هو معيار العلاقة relation . (عناي، 2003: 237؛ مندي، 166-2010: 168؛ غيدير، 2015: 196). وفي هذا الصدد، يذكر مندي أنه أجرى دراسات وصفية أثناء إعدادة رسالة الدكتوراه سنة 1997 وأظهرت النتائج أن قانون التداخل في حاجة إلى تعديل أو حتى استبدال قانون جديد به هو Reduced control over linguistic realization in translation أي 'انخفاض التحكم في التحقيق اللغوي في الترجمة'. "وأما معناها فهو أن المترجم يخضع لعدة عوامل تنتقص من قدرته على التحكم الكامل في الصياغة اللغوية لما يترجمه، منها تأثير الأنساق اللغوية للنص المصدر، أي أبنيته وتنظيمه الداخلي، ومنها تفضيل المترجم للوضوح وتجنب الغموض في النصوص المترجمة، ومنها العوامل الواقعية التي تؤثر في عمل المترجم مثل ضغط الوقت ومحاولته تحقيق أقصى قدر من النجاح في الترجمة بأقل قدر من الجهد." (عناي، 2003: 236). ولهذا القانون الذي يقترحه مندي، والذي يقصد به السيطرة المحدودة على الفعل اللغوي في الترجمة، مزية كبيرة إذ "من شأنه أن يجمع معاً بعضاً من العوامل المتباينة التي تؤثر على عملية الترجمة وأن يجعل مفهوم المعايير والقوانين في الترجمة أكثر تشعباً مما هو عليه في بعض الدراسات التي قام بها توري." (مندي، 2010: 165). وقد اقترح لامبرت Lambert و فان غورب van Gorp، وهما من الباحثين الأعضاء في الرابطة الدولية للأدب المقارن والسالكين منهج دراسات الترجمة الوصفية، مخطّطاً لوصف الترجمات دفعت بنظرية النظم المتعددة قُدماً. ولا سبيل إلى الفكاك من كلّ النقااص سالفه الذكر إلاّ باتّباع الأفكار المتبصّرة التي جاد بها هيرمانز Hermans حيث يقول متحدّثاً عن نظرية النظم المتعددة: "لابد لهذا الفرع عموماً والمدرسة الوصفية خصوصاً أن يأخذوا على محمل الجدّية التطورات الحاصلة في عدد من الحركات الفكرية والاجتماعية الأبرز في عصرنا الحالي بما في ذلك دراسات الجنس ودراسات مابعد البنوية ودراسات ما بعد الاستعمار والدراسات الثقافية ومنهج الفروع البنينة للعلوم الإنسانية." (مندي، 2010: 170).

خاتمة

على الرغم من أن نظرية النظم المتعددة من مثالب إلا أنّ لها مناقب عديدة. ويكفي واضعها، إفين - زوهار وجدعون توري، فخرا علميا أهما تفتنا إلى جانب مهم من دراسات الترجمة وهو التعاطي مع الأدب المترجم كنسق ضمن أنساق، وتحليله بمنهجية متينة، وتقييمه بقوانين ومعايير تتميز بالجدّة والجدية. فهذه النظرية، نظرية توري، كما يشير إلى ذلك عالم اللغة ومنظر الترجمة الروسي كوميساروف (Komissarov, 2010: 310) "تمثل قيمة نظرية وعلمية أكيدة للتطوير اللاحق للنظرية العامة للترجمة، وكذلك لوضع نظرية الترجمة الأدبية، إذ ترسم ملامح طريق تقارب المنهجين اللغوي والأدبي من وصف هذا الشكل المعقد من النشاط الترجمي. ويحتاج إجراء التحليل المقترح إلى المزيد من التحديد، إلا أن توجهه العام هو واعد للغاية." فنظرية النظم المتعددة مازالت قيد الاستكمال، ولم تستجمع كافة أدواتها، ولم تتضح معالم العناصر المشكّلة لها كل الوضوح. وفي هذا الشأن يذكر شاتلورث (Shuttleworth, 1998 : 179) أن نظرية النظم المتعددة التي أقام قواعدها إفين-زوهارليست كاملة كلّ الكمال ولا مُحكّمة كلّ الإحكام، بل هي نقطة انطلاق لمزيد من الأعمال الدراسية، من شأنها بعث بحث مثمر ذي طبيعة نظرية ووصفية. ورغم بقائها 'عملا قيد التطور'، خاضعا لمزيد من التعديل والتحسين، فإن إسهام نظرية النظم المتعددة في فهمنا لطبيعة الترجمة ودورها هو إسهام معتبر قويّ التأثير.

قائمة المراجع:

- أمبارو، أرتادو ألبير (2007). الترجمة ونظرياتها - مدخل إلى علم الترجمة. ترجمة علي إبراهيم المنوفي، القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- باسنت، سوزان (2012). دراسات الترجمة. ترجمة فؤاد عبد المطلب. دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب.
- عناني، محمد (2003). نظرية الترجمة الحديثة - مدخل إلى مبحث دراسات الترجمة. الجيزة: الشركة المصرية العالمية للنشر - لوجمان.
- غيدير، ماتيو (2015). مقدّمة إلى الترجمة (علم الترجمة) - تفكّرات في ماضي الترجمة وحاضرها ومستقبلها. ترجمة قاسم المقداد. دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع.
- غينتسلر، إدوين (2007). في نظرية الترجمة اتجاهات معاصرة. ترجمة سعد عبد العزيز مصلوح، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- كوميساروف، فيلين ناعوموفيتش (2010). علم الترجمة المعاصر. ترجمة عماد محمود حسن طحينة. أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة).

- مندي، جبريمي (2010). مدخل إلى دراسات الترجمة - نظريات وتطبيقات. ترجمة هشام علي جواد. أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة).

- Baker, M. (Ed.) (1998). Routledge Encyclopedia of Translation Studies. London: Routledge
- Even-Zohar, I. (1990). Polysystem Studies. Tel Aviv: The Porter Institute for Poetics and Semiotics.
- Munday, J. (2001). Introducing Translation Studies: Theories and Applications. London: Routledge.
- Pym, A. (Ed.) (2008). Beyond Descriptive Translation Studies: Investigations in Homage to Gideon Toury. Philadelphia: John Benjamins Publishing Company.
- Toury, G. (1980). In Search of a Theory of Translation. Tel Aviv: The Porter Institute for Poetics and Semiotics.
- Toury, G. (1995). Descriptive Translation Studies and Beyond. Amsterdam: Benjamins.